المحاضرة الثانية: تاريخ لسانيات النص وعلاقتها بمختلف العلوم الإنسانية والاجتماعية

ذكرنا سابقا أن لسانيات النص تعد رافدا من روافد اللسانيات، ميدانه النص/ الخطاب، وهدفه دراسة أدوات تساق هذا النص/ الخطاب وآليات انسجامه، أي البحث في نصيته مع ربطه بالسياق والتواصل، وهي منذ ستينات القرن الماضي تتطور، وتثرى أفكارها ، وتتعدد مناهجها. سنحاول الوقوف على أهم المحطات التي مرت بها.

- يرجع كثير من الباحثين ميلاد هذا العلم إلى اللساني الأمريكي زيليج هاريس تلميذ بلومفيلد وأستاذ تشومسكي، لأنه أول من دعا صراحة إلى تجاوز حدود تحليل الجملة إلى تحليل الخطاب، لكن الناظر في روافد لسانيات النص أو الخطاب يجد أن مفاهيمها تنبثق من مناهج متعددة، إذ من رحم التوليدية التحويلية، والتوزيعية، والتداولية والوظيفية وغيرها ولدت لسانيات النص، وكان ذلك في النصف الأخير من القرن العشرين، حيث حاولت الارتقاء بلسانيات الجملة إلى مستوى أعلى هو النص، لكن يجب أن ينتبه إلى أن لسانيات النص لم تبن على أنقاض لسانيات الجملة كما يزعم بعض الباحثين، بل هي معالجة لمجال لساني لم يتطرق إليه في الدراسات الغربية سابقا.

- تشير بعض الدراسات إلى أن ظهور لسانيات النص يعود إلى عمل قال به أحد الدرسين يسمى بphil سنة 1887، حين نبه إلى الترابط القائم بين تتابع الألفاظ وتتابع الأفكار، وهناك من يرجعه إلى الباحثة الأمركية nye في أطروحتها المقدمة لنيل الدكتوراه عام 1912، حيث عرضت لعلامات عدم الاكتمال والتكرار في النصوص. وهذا معناه أن هذين الباحثين قد سبقا هاريس إلى الحديث عن قضايا لسانيات جديدة هي لسانيات النص.

- نشر هاريس مقاله (تحليل الخطاب) سنة 1952، منبها إلى ضرورة استيعاب اللسانيات الوصفية التوزيعية لموضوع أعلى من الجملة هو النص او الخطاب أو القول المتتابع على اختلاف في المصطلحات التي احتضرها كما نبهنا في المحاضرة الاولى، وكذا إلى الوقوف على العلاقة الموجودة بين الثقافة واللغة (وحين نقول الثقافة واللغة نقول تجاوز حدود البنية المغلقة للغة، والانفتاح على المؤثرات الخارجية)، وفي حديثه عن هذا المعطى الجديد نبه إلى كليته، وإلى تتابع عناصره، وإلى مسألة ترتيب عناصره، وطريقة توزيعها داخل النص. وقد عدت هذه المفاهيم من أهم مفاهيم لسانيات النص التي طورت فيما بعد ودقق فيها. لكنه في خضم تحليلاته للنصوص حاول الوقوف على التراكيب المتكافئة عند تقطيع النصوص مما جعل دراسته شكلية.

- في عام 1968 حاول harweg وصف التنظيم الداخلي للنص، وإبراز العلاقات التي تربط بين أجزائه، وأصبح ينظر إلى المتتاليات المترابطة على أنها نسيج متشابك لا يمكن الفصل بين أجزائه.

- في سنة 1972 ظهر كتاب اللساني الهولندي فان ديك (van dijk) (نظرات في نحو النص) دعا فيه إلى ضرورة تجاوز مستويات التحليل اللساني المعروفة (الصوتية والصرفية والتركيبية) إلى المستوى الدلالي والعملي (التداولي)، والاهتمام بالروابط التي تربط بين أجزاء النصوص، يقول فان ديك: "في كل الأنحاء السابقة على نحو النص وصف للأبنية اللغوية، لكنه لم يعن بالجوانب الدلالية عناية كافية مما جعل علماء النص يرون أن البحث الشكلي للأبنية اللغوية ما يزال مقتصرا على وصف الجملة بينما يتضح من يوم إلى آخر جوانب كثيرة لهذه الأبنية وبخاصة الجوانب الدلالية لا يمكن ان توصف إلا في إطار أوسع لنحو الخطاب أو لنحو النص". وهذا ما حاول إرساءه ودراسته في كتابه النص والسياق. ويجب التأكيد أن فان ديك لم بنكر فضل لسانيات الجملة، إلا أن الجوانب الكثيرة التي ظلت خفية كالجوانب الدلالية والسياقية ودور المشاركين وغيرها تدعو إلى ضرورة إلى تجاوز حدود الجملة إلى النص والخطاب، يقول: "لقد توقفت القواعد واللسانيات التقليدية غالبا عند حدود وصف الجمل ... وأما في علم النص فإننا نقوم بخطوة إلى الأمام، ونستعمل وصف الجمل بوصفه أداة لوصف النصوص، وما دمنا سنتتبع هنا المكونات المعتادة للقواعد، وسنستعمل النصوص المستخدمة بغية وصف الجمل فإننا نستطيع أن نتكلم عن قواعد النص" .

- في سنة 1976 ظهر كتاب هاليداي ورقية حسن المعنون بالاتساق في اللغة الإنجليزية، حيث وقف على مفهوم الاتساق، ودوره في تماسك النصوص، وبين أدواته.

ثم توالت الأعمال والأبحاث بعد ذلك ، وظهر أعلام بارزون في هذا العلم من بينهم جليسون gleason و هارفج harweg ودريسلر dressler وفانريش weinrich وكلاوس برينكر brinker، وروبرت دي بوجراند de beaugrand وغيرهم.

وقد لاحظ محمد الشاوش فيما ضبطته مجلة bulletined linguistique أن عدد الأعمال التي صنفت تحت عنوان analyse du discours و linguistique du texte والتي نشرت بين 1978 و 1990 يترواح بين 94 و298 عملا في العام الواحد، ومن هنا فإنه يذهب إلى انه لم يتجاوز نحو الجملة سوى في نهاية الستينات الميلادية في حين أن سنة 1984 تمثل ذروة الاهتمام بنحو النص وتحليل الخطاب، حيث بلغت الأعمال المنشورة فيها 298 عملا.

- يشير دي بوجراند في كتابه النص والخطاب والإجراء الذي ترجمه تمام حسان رحمه الله إلى هذا العلم مر بثلاث مراحل: أ- المرحلة الأولى: استمرت حتى آخر الستينات، لا نجد فيها إلا إشارات تلمح إلى أنه ينبغي للنص أو الخطاب أن يكون أساسا للدراسات اللسانية (مثلا: إنجاردن، وبوهلر، وهلمسليف، وهاريس، وبايك، وكوسيريو، وأولدال، وكارلين ... ويرى أن هذه الآراء لم تكن تؤثر في مسيرة اللسانيات المألوفة، لأن أصحاب المناهج المتداولة اتجهوا اتجاها معاكسا لا شك فيه،وذك أن الانهماك في النظر إلى الوحدات الصغرى والجمل المفردة أدى بطبيعة الحال إلى الانصراف عن دراسة النص الكامل.ب- المرحلة الثانية: تبدأ تقريبا من عام 1968، وفيها تلاقت آراء طائفة من اللسانيين الذين استقل بعضهم عن بعض في الغالب حول فكرة لسانيات ما وراء الجملة مثل: هايدولف، وبايك، وكريمز، وديك، وهارفيج .... في هذه المرحلة ركز الانتباه على موضوعات كان الكلام عنها ممكنا بواسطة مفردات من لسانيات الجملة لكن دون الوصول إلى حلول مقنعة، وكان الاتجاه السائد هو النظر إلى النص من حيث هو جمل متوالية. ج- المرحلة الثالثة: وتبدأ من سنة 1972، وفيها وجه نقد للدراسات النحوية المبنية على الجملة، مما أدى إلى تقديم مقترحات جديدة، وفيها أعلنت اللسانيات الاجتماعية معارضتها للتجريدات المعزولة عن المواقف الاجتماعية، كما بدأت تنتشر مسألة الذكاء الاصطناعي ومحاكاة اللغة الإنسانية بواسطة الحاسوب، كما استقر علماء النفس على العمليات المعرفية وقضايا الذاكرة، هذه الروافد كان لها دور كبير في نشأة لسانيات النص، فهذه العلوم دعت إلى تجاوز الوصف المجرد إلى بنيات الجمل، إلى الوقوف على العمليات التي يتحقق بواسطتها استعمال اللغة الإنسانية.

تلك لمحة عن ولادة علم اللغة النصي ونشأته في الغرب، أما انتقاله إلى اللغة العربية فقد كان عن طريق الترجمة، ولعل أول إشارة إليه في الأعمال العربية المعاصرة هي إشارة نهاد رزق الله في بحثه (دراسات منهجية في تحليل النصوص)، ولكنه هاجمه قائلا: "جاء تحليل الخطاب هزيلا جدا، لأنه اكتفى بمعنى التعابير من ضمن النص المغلق، أو اعطى كل المعاني لأي نص انطلاقا من فرضيات المحلل وخلفياته" ربما كان الهجوم لأن الرؤية لما تتضح بعد لآفاق هذا العلم، أو لبعد نهاد رزق الله عن ممارسة التخصص اللساني بمعناه الدقيق. ويقرر سعيد بحيري بعد ذلك أنه تعرف على كتاب: علم النص (مدخل نتداخل الاختصاصات)، تأليف: فان ديك في سنة 1985، حين بدأ يتحول إلى مجال علم اللغة النصي أو علم لغة النص، أما أول إشارة مهمة إلى هذا العلم فقد كانت في بحث سعد مصلوح الذي عنونه: من نحو الجملة إلى نحو النص، الصادر سنة 1989 في الكويت. ويمكن أن يكون أول بحث عربي يستعمل بعض أدوات علم اللغة النصي هو بحث محمد مفتاح المعنون بـ: انفتاح النص الروائي (النص والسياق) الصادر سنة 1989، ثم توالت الترجمات والبحوث المنشورة باللغة العربية في مجال لسانيات النص.

2- **أهداف لسانيات النص**: بما أن لسانيات النص تجاوزت الموضوع المعالج من الجملة إلى النص فلا شك أن الأهداف التي ترومها ترتبط ارتباطا وثيقا بهذا الموضوع الجديد، ومن ذلك:

1. الوصف، والتحليل، والدراسة اللغوية لمختلف الأبنية النصية، وتحليل المظاهر المتنوعة لأشكال التواصل النصي، وضبط العلاقات الداخلية والخارجية لمختلف الأبنية النصية بكل مستوياتها النحوية والدلالية والتداولية.
2. تمييز ما هو نص عما ليس بنص.
3. تفسير الظواهر التركيبية التي لم تفسر على مستوى الجملة تفسيرا مقنعا، من ذلك: الحذف، الاستبدال، إحالة الضمائر.
4. تفسير الآلية التي تتعلق بإنتاج النصوص وفهمها عند كل من المتكلم والمتلقي.
5. توظيف الدلالة والسياق اللذين كانا غائبين في لسانيات الجملة.
6. الوقوف على آليات التماسك داخل النصوص.
7. يمكن عن طريق لسانيات النص إعادة النظر في بعض المفاهيم السائدة؛ من ذلك مثلا مقولة افتقار الشعر القديم إلى الوحدة العضوية، فيمكن من خلال وسائل التماسك معرفة ما إذا كانت المذكورة محكمة النسج أم أنها مفككة لا يوجد ما يربط بعضها ببعض.
8. استحضار الوحدة العضوية والموضوعية في تحليل النصوص والتدليل عليها.
9. تصنيف النصوص والوقوف على أنماطها المختلفة (سردي، حجاجي، ....).

وقد تتبع صبحي إبراهيم الفقي آراء اللسانيين العرب والغرب في الوظائف التي أسندها العلماء لهذا العلم فأورد أنه يمكن حصرها في وظيفتين كبيرتين هما: الوصف النصي، والتحليل النصي، قال في هذا الصدد: "في الأعوام القليلة الماضية، بعد أن بدأت معالم علم اللغة النصي في الوضوح، رأينا الكثير من علماء اللغة يتحدث عن وظيفة علم اللغة النصي، ورأينا التكرار الواضح في بيان هذه الوظيفة، سواء أكان من علماء الغرب أم من علماء العرب، وقد استطعنا الجمع بين العديد من هذه الآراء، إذ يتفق معظمها على أن وظيفة علم اللغة النصي تنحصر في أمرين أساسين هما: أولا: الوصف النصي، وثانيا: التحليل النصي"

وذكر أنه يقصد بوصف النص توضيح مكونات النص، وذلك بتعيين الجملة الأولى فيه، وتوضيح الموضوعات المتناولة فيه، مع بيان الروابط الشكلية والمعنوية الموجودة فيه، وما تؤدي إليه من انسجام وسبك بين متتابعات النّص حتى تصير كأنها جملة واحدة، وعندئذ يبدأ تحليل النص الذي لا يقتصر على بيان الروابط الداخلية فقط، بل يهدف إلى توضيح الروابط الخارجية أيضا، ومن ثم يظهر دور السياق في تأليف أشتات النص التي تبدو متفرقة فتصبح متجاذبة.

3- تقاطع لسانيات النص مع علوم أخرى: تتقاطع كثير من مفاهيم لسانيات النص مع علوم إنسانية واجتماعية، بعضها كان رافدا من روافدها، وبعضها الآخر ارتبط بها لأن النص ينفتح عليها كعلم الاجتماع وعلم النفس، ولعل ما يمتن العلاقة أكثر أن كل هذه العلوم تعنى بالنصوص تحليلا ومناقشة من أجل الاستفادة من مضامينها. وسنحاول الوقوف على أهم التقاطعات التي تجمع لسانيات النص بمختلف هذه العلوم.

أ- علاقة لسانيات النص بالبلاغة: البلاغة هي فن القول، ولذا عنيت بالوقوف على الوظيفة الجمالية والبرهانية (الإقناعية) لنصوص وأقوال أدبية، وقد سعت إلى الرقي بالخطاب إلى مستوى يتمكّن فيه المتكلم أو المنشئ من شد انتباه المتلقي والتأثير فيه، وهي بهذا تتقاطع مع لسانيات النص في الاهتمام بالخطابات والنصوص، هذا بالنسبة للبلاغة الغربية، أما عند العرب فتكاد موضوعاتها تتماهي مع موضوعات لسانيات النص، فجل أبوابها داخل في موضوعات لسانيات النص، كالمناسبة، والفصل والوصل، والتورية، .... ومسألة المطابقة وفكرة مقتضى الحال تشغلان مساحة مهمة من مساحات الاشتغال بالنص ومقوماته اللغوية وغير اللغوية، ونظرية النظم التي أرسى معالمها الجرجاني لا تكاد تخرج عن حدود الدراسة النصية، بل نبهت إلى أهمية الربط المحقق للاتساق والانسجام، ومعالجات كثير من البلاغيين هي معالجات تدور في فلك النص، ويأتي في مقدمتها كتاب حازم القرطاجني (منهاج البلغاء وسراج الأدباء).

ب- لسانيات النص والأنثروبولوجيا: الأنثربولوجيا هي العلم الذي يهتم بدراسة الإنسان (قديما وحديثا)، ولاشك أن الوصول إلى الإنسان القديم لا يتحقق إلا من خلال آثاره (المكتوبة أو المنقوشة، أو المشافهة)، ولذلك عمل كثير من الأنثروبولوجيون أمثال: مالينوفسكي، وفلادمير بروب، وستراوس على تحليل الأنماط السائدة في الأدب الشعبي والأسطوري لإيجاد بناها، وتفكيك رموزها، كما عملوا على تسليط الضوء على الأسس المؤثرة في قدرة الناطقين بلغة من اللغات على تأليف النصوص واستعمالها للاتصال بين الأشخاص. ولاشك أن النتائج المتوصل إليها تفيد لسانيات النص أيما فائدة، حيث إن الانثروبولوجيا ستمد لسانيات النص بحقيقة أن الإنسان يتواصل منذ القديم اعتمادا على نصوص، حتى بالنسبة للرسومات والرموز الموجودة في الكهوف فهي نصوص، وبما أن اللغة لصيقة بالإنسان وتعد مظهرا من مظاهر سلوكه فإن الأنثروبولوجيا ستعطي أمثلة حية لاستعمال مختلف المجتمعات للغة في مقامات تواصلية عملية معينة، وأنه لا يمكن فهم السلوك اللغوي إلا بربطه بمقامه العملي المحدد.

ت- لسانيات النص وعلم الاجتماع: يفيد علم الاجتماع لسانيات النص في الوقوف على بيان أدوار المشاركين في المحادثات الاجتماعية، كما توضح نوعية الخطابات المنتجة بحسب الفئة الاجتماعية